Linguistic and Philosophical Investigations
ISSN: 1841-2394, e-ISSN: 2471-0881
Vol 25 (2), 2026
pp. 1036-1049

The symbolism of Jerusalem in the Poem "The Sacred Flame" by Mufdi Zakaria: A Reflection on the Poetics of Place and its Semantic Dimensions

Dr. Choumaissa BENMEDDAH [1]

1: Faculty of Arts and Humanities, University of Tlemcen (Algeria) soumicha.benmeddah@univ-tlemcen.dz

Summary:

The Palestinian cause has generated a lot of ink and sparked great interest among writers, and there is nothing surprising about it, as this issue has transcended geographical boundaries to become a universal human concern; it represents one of the sacred values in the thot of the Algerian people, whose esteem reaches the level of beliefs and cults. And perhaps Jerusalem has a symbolism and meanings that make it a central point in the poems of Algerian poets, where they are deeply connected to it on a spiritual level, finding it inspiring for their verses, stimulating their creativity. Among these poets who have dedicated their pens to the service of their homeland and the causes of their nation, there is Mufdi Zakaria, who dedicated a long poem titled "Palestine on the Cross" to Jerusalem in his collection "The Sacred Flame," in which he embodied a brilliant vision based on a complex symbolic structure. In this poem, the symbol does not operate on a single level, but religious, political, and historical meanings intertwine to form a profound network that expresses the tragedy of Palestine and gives it a universal human perspective.

Therefore, this study aims to highlight the effectiveness of the poetic symbol in representing human values, and how it is used in the poetic discourse of Mufdi Zakaria, by examining the elements of symbolic performance, tracing its meanings in "The Sacred Flame" and its manifestations in the construction of poetic meaning.

Keywords: Jerusalem; The Sacred Flame; Mufdi Zakaria; The Palestinian Cause; Symbolic Structure; Symbolic Meanings.

Received: 23/04/2026 **Accepted**: 12/06/2026 **Published**: 02/09/2026

رمزية القدس في ديوان 'اللّهب المقدّس' لمفدي زكريا: قراءة في شعرية المكان و أبعاده الدلالية

د. شميسة بن مداح [1]

[1]: كلية الآداب والفنون جامعة تلمسان (الجزائر)، soumicha.benmeddah@univ-tlemcen.dz

الملّخص:

لقد أسالت القضية الفلسطينية الحبر الكثير، ونالت من الأدباء الاهتمام الكبير، ولا غرو في ذلك، فقد تجاوزت هذه القضية المكان الجغرافي لتغدو همًّا إنسانياً مطلقاً؛ إذ هي تمثل إحدى المقدسات في تفكير الشعب الجزائري يرقى تقديرها إلى

مستوى تقدير المعتقدات والعبادات. ولعلّ للقدس رمزية ودلالات جعلها مرتكزاً أساسياً في قصائد الشعراء الجزائريين، حيث اِرتبطوا بها اِرتباطًا روحيًا عميقًا، فكانت مُلهمةً لأشعارهم، مفجّرةً لقرائحهم، ومن هؤلاء الشعراء الذين سخروا أقلامهم لخدمة وطنهم وقضايا أمتهم، مفدي زكريا، الذي خصّ للقدس في ديوانه "اللّهب المقدّس" قصيدة طويلة بعنوان "فلسطين على الصليب" جسّد فيها رؤية متوهّجة قائمة على بنية رمزية مركبة، لا يشتغل فيها الرّمز على بعد واحد، بل تتداخل فيه الدلالات الدينية والسياسية والتاريخية، لتشكّل شبكة عميقة تعبّر عن مأساة فلسطين وتمنحها أفقاً إنسانياً شاملاً.

وعليه، فإنّ هذه الدراسة تتغيّا تسليط الضوء على فاعلية الرّمز الشعري في تمثل القيم الإنسانية، وكيفية توظيفه في الخطاب الشعري لدى مفدي زكريا، بالوقوف على عناصر الأداء الرّمزي، وتتبّع دلالاته في "اللّهب المقدّس" وتجلّياته في بناء المعنى الشعري.

الكلمات المفتاحية:

القدس؛ اللّهب المقدّس؛ مفدي زكريا؛ القضية الفلسطينية؛ البنية الرّمزية؛ الدّلالات الرّمزية.

مقدمة:

ما لا يختلف فيه اِثنان أنّ القضية الفلسطينية تعدّ من أبرز القضايا التي ألهبت مشاعر الأمة بوصفها قضية مركزية في العالم العربي. وتشكّل فلسطين موضوعًا قائمًا بذاته لِما لها من مكانة دينية وتاريخية وحضارية، ولِما لها من حضور روحي أملته قداسة المكان، فهي أولى القبلتين، ومسرى الرسول- صلى الله عليه وسلّم- ، وزهرة المدائن، وثالث الحرمين الشريفين، ومهد الرسالات السماوية والرسل. وقد اِهتمّ بها الكثير من الشعراء، فكتبوا فيها أجمل الأشعار، حيث رافق الشعر الجزائري القضية الفلسطينية منذ ظهورها، إذ كان الشعراء يستغلون كلّ مناسبة لمناصرتها وتأييدها ومتابعة أحداثها في جميع مراحلها وأطوارها، راسمين صوراً لواقع القدس تبرز معاني القداسة والطهارة حينًا، ومعاني الحزن والأسى الذي تحياه في ظلّ الاحتلال الصهيوني حينًا آخر، مشيرين في ذلك إلى عجز الوطن العربي وتقصيره تجاه فلسطين المغتصبة. ولعلّ رمزية القدس وما تحمله من دلالات جعلها قطب الرّحى في قصائد الشعراء الجزائريين، فأبدعوا من نارها ونورها حروفًا معبّرة بصدق ووفاء عن معاناة الشعب الفلسطيني المكلوم. ومن أبرز هؤلاء الشعراء الذين ذاع صيتهم وعلا كعبهم في هذا المجال، شاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكريا" الذي سخّر قلمه لخدمة وطنه والقضية الفلسطينية، فكان شعره سوطًا على الاستعمار بعامّة.

لقد أدرك مفدي زكريا أنّ النضال من أجل تحرير القدس هو نضال من أجل تحرير الوطن العربي كلّه، حيث أفرد لفلسطين في ديوانه "اللّهب المقدّس" قصيدة طويلة بعنوان "فلسطين على الصليب" تقوم على بناء حواري بين الشاعر وفلسطين والعرب، وذلك بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لتقسيمها، مبرزًا قداسة القدس ورمزيتها ودلالتها.

وتأسيسًا على ذلك، اِنبثقت إشكالية هذه الدراسة والتي تتمثل في: كيف اِرتقت القدس في ديوان "اللّهب المقدّس" من حضور مكاني إلى رمزٍ شعري كثيف الدّلالات متداخل الأبعاد؟

لفكّ هذه الشفرة رسمنا خطّة تتألّف من ثلاثة محاور وخاتمة. المحور الأوّل، قدّمنا فيه نبذة موجزة عن صاحب المدوّنة مفدي زكريا، وعرّفنا فيه كذلك بديوان "اللّهب المقدّس"، وأمّا المحور الثاني، فخصصناه لإبراز صورة فلسطين في ديوان "اللّهب المقدّس"، والمحور الأخير، سلطنا فيه الضوء على رمزية القدس ودلالاتها في الديوان، وخلصنا إلى خاتمة لَمْلَمْنا فيها شتات ما تجاذبته هذه الدراسة، عارضين أهمّ النتائج المتوصّل إليها.

1- نبذة موجزة عن صاحب المدوّنة (مفدي زكريا):

ولد شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا بن سليمان آل الشيخ في أبريل (نيسان) من عام 1908م بأحد القصور السبعة لوادي ميزاب ببني يزقن في ولاية غرداية جنوب الجزائر، عُرف بلقب "مفدي" الذي أطلقه عليه زميله سليمان بوجناح.

بدأ تعليمه الأوّل في الكتاتيب بمسقط رأسه فدرس القرآن، وفي السابعة من عمره اِنتقل إلى عنابة ثم رحل إلى تونس وفيها واصل تعليمه باللغتين العربية والفرنسية، فتحصّل على شهادة الثانوية بالخلدونية ثم اِلتحق بجامعة الزيتونة، فتخرّج

فيها.انضمّ إلى صفوف العمل السياسي والوطني منذ أوائل الثلاثينات، فكان مناضلاً نشيطًا في صفوف جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، حزب نجمة إفريقيا الشمالية، حزب الشعب، الانتصار للحريات الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني.

جمع مفدي زكريا بين النشاط الأدبي والسياسي في مختلف أرجاء المغرب العربي، ودخل السجن خمس مرات اِبتداءً من سنة 1937م واِنتهاءً بسنة 1959م، وكان أمينًا عامًا لحزب الشعب ورئيسًا لتحرير صحيفة الشعب الداعية لاستقلال الجزائر في سنة 1937م. فرّ ملتحقًا بجبهة التحرير الوطني في الخارج.

توفي الشاعر مفدي زكريا في 02 رمضان 1397هـ الموافق لـ18 أوت (آب) سنة 1977م بتونس وعمره تسعة وستون عاما، ونقل جثمانه إلى الجزائر، ودُفن بمسقط رأسه في بني يزقن بغرداية. (مفدي، 2006، صفحة 4؛ ناصر، 1985، صفحة 11؛ بركات، 2013، صفحة 206؛ قنانيش، 1982، الصفحات 35-59)

1-1. مؤلفاته:

خلّف مفدي زكريا رصيداً شعرياً وملحمياً، يشهد له التاريخ الأدبي الحديث والمعاصر فيه بالرّيادة، منه:

- "اللّهب المقدس"، طبع في بيروت سنة 1961م، وفي الجزائر سنة 1982م.
- "تحت ظلال الزيتون"، صدر سنة 1965م.
- "إلياذة الجزائر"، سنة 1972م، وهي ملحمة شعرية فيها ألف بيت وبيت، وطبعت ثلاث مرات بالجزائر.
- "أمجادنا تتكلم"، سنة 1973م.
- "من وحي الأطلس"، صدر بالرباط سنة 1976م.
- "أهازيج الزحف المقدّس".
- "اِنطلاقة- الخافق المعذّب". (مفدي، 2006، صفحة ظهر غلاف الكتاب؛ قنانيش، 1982، الصفحات 35-59)

كما ترك العديد من الدواوين التي لم تنشر. وتعبيرًا عن تعلّقه بالفكر والثقافة، أوصى بتحويل بيته في بني يزقن إلى مركز إشعاع علمي، فأصبح مكتبة للمطالعة، تضمّ أهمّ مخطوطاته والعديد من المصادر العلمية القديمة والحديثة تحت إشراف عائلته.

وارتبط اسمه كذلك بأناشيد النضال والثورة، منها: "فداء الجزائر"، "قسما بالنازلات"، "نشيد الثورة الجزائرية الرسمي"، "نشيد جيش التحرير الوطني"، "نشيد الشهداء الجزائريين"، وسائر الأناشيد الوطنية للطلبة والعمال وغيرهم.

1-2. التعريف بالمدوّنة (اللّهب المقدّس):

- يعتبر ديوان "اللهب المقدّس" أهمّ وأشهر دواوين مفدي زكريا، فهو يجمع شعره الثوري من سنة 1953م حتى سنة 1961م، وقد احتلّ الديوان مكانة خاصّة في الشعر الجزائري الحديث، حيث أصبح رمز فخر وفخار للجزائريين، وآية لعبقرية الشاعر، إذ وصفه في حديث صحفي بأنّه: «واقع ثورة وتاريخ حرب، وعصارة قلب شاعر عاش أحداث بلاده في السجون، والمعتقلات، وشهد رؤوس الفدائيين تُحصد بالمقصلة الاستعمارية في ساحة سجن "بربروس" الرهيب» (مفدي، 2006، صفحة ظهر غلاف الكتاب؛ فتح الباب، 1997، صفحة 38).

وفضلاً على ذلك، فإنّ الديوان هو إنتاج ثقافي يرمز إلى الهويّة الجزائرية، إذ يؤرّخ لفترة تاريخية تخصّ الشعب الجزائري برموز أدبية ولغوية، وفي هذا الصدد يقول مفدي زكريا:

فَخَلَّدَ قُدْسُ اللَّهِيب بَيَانِي ❁ وأَذْكَى لَهِيب الجَزَائِر فِكْرِي.

(مفدي.، 1987، صفحة 115)

والمتصفح لهذا الديوان يجد أنّ الشاعر قد اِستهلّه بإهداء مجّد من خلاله يوم اِندلاع الثورة التحريرية الكبرى في الفاتح نوفمبر 1954م، إذ يقول: «إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر/ تشرين الثاني 1954م. إلى أوّل أصبع جزائرية حرّكها الأزل،

https://philolinginvestigations.com

وضغط بها القدر الرابض على زناد البعث، لتطلق القذيفة المسحورة الأولى فتسعّر اللّهب المقدّس في دروب بلادي الحالمة، وأحراشها السّكرى، ورمالها العطشى، وجبالها الغضبى... أهدي ذوب كبد تحترق في أتون اللّهب المقدّس» (مفدي، 2006، صفحة 3).

ثم أتبعها بكلمة قدّم فيها منتوجه الأدبي، وسلاحه الذي لا ينفد؛ ديوانه "اللّهب المقدّس"، نحو قوله: «واللّهب المقدّس هو ديوان الثورة الجزائرية، بواقعها الصريح، وبطولاتها الأسطورية، وأحداثها الصارخة وهو (شاشة تلفزيون) تبرز إرادة شعب اِستجاب له القدر....، لَمْ أُعْن في "اللّهب المقدّس" بالفنّ والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائري الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة» (مفدي، 2006، صفحة 4).

فهو يصرّح في بداية ديوانه بأنّه لم يُولِ اِهتماما كثيرا بالتصوير الفني، ولا بالصنعة اللّفظية، وإنّما وقف على الثورة الجزائرية التي ألهمته حرارة أنفاسه، فصاغ من وحيها أناشيده وقصائده، ومن ثمّ، فشعره هو الثورة، والتعبئة الثورية، والشعر على حدّ تعبيره إلهام لا فنّ، وعفوية لا صناعة، ومن هنا تتأسس العلاقة بين الشعر والثورة في الديوان على التفاعل لا على الفصل بين التجربة الجمالية والتجربة التاريخية.

كما يعرض بشعر نزار قباني في ديوان "طفولة نهدا"، ويتضّح ذلك في قوله: «قد لا يجد عُشاق- ما يسمونه بالشعر الجديد- في "اللّهب المقدّس"، ما يشبع غرائزهم المشبوبة في جحيم النهود والبراعم والفساتين... ولكن سيجد فيه (الشعراء الناس) صلة رحم وُثقى بعزّ أمجادهم، وتجاوبًا صادقًا مع مشاعر العروبة الزاحفة في كلّ بلد عربي يقدّر ما لكلمة "عروبة" من عظمة وجلال، وسيجد فيه روّاد "التجديد الرصين" ما يدعم عقيدتهم في أنّ عمود الشعر العربي- غير المغموز النسب- يبقى شامخًا أمام أيّ تجديد في التعبير والتفكير في حدود (الشخصية الذاتية) للغة صمدت في وجه الزمن، وعسى أن أكون بهذا قد أرضيت ضميري، وثورة بلادي، وعروبتي، وأهبت- لنجدة ثورة العرب في الجزائر- بكلّ من تيّقظ فيه ضمير» (مفدي، 2006، صفحة 4).

وهو بذلك يكشف عن موقفه من التجديد في الشعر، وعن رغبته في أن يجمع الديوان بين الوفاء للتراث والقدرة على التعبير عن روح العصر، حريصا أن يظل الشعر متصلاً بالهوية العربية وبالوجدان الجمعي من دون أن يتحول التجديد إلى قطيعة مع أصول الشعر العربي.

وتعقب هذه الكلمة رسالة من ابنه سليمان صلاح الدين، والذي كان اِختار الانضمام إلى الكفاح المسلّح بدل مواصلة دراسته، حيث بعث بها إلى والده- مفدي زكريا- ليُبشره بالتحاقه بصفوف جيش التحرير الوطني، وحينما تلقى الشاعر هذا الخبر أنشد قصيدة عنوانها "هكذا يفعل أبناء الجزائر"، يفتخر فيها بابنه- صلاح الدين-، ويحثه إلى المضي قُدمًا نحو الكفاح في صفوف جيش التحرير.

والجدير بالذكر أنّه لم ترد في الديوان فصول ولا أبواب، ولكنّه جاء على شكل عناوين كبيرة رئيسة، عددها خمسة، وهي كالتالي:

1) من أعماق بربروس.
2) تسابيح الخلود.
3) نار ونور.
4) تنبؤات شاعر.
5) من وحي الشرق.

كما اِنضوت تحت كلّ عنوان من هذه العناوين الخمسة عناوين جزئية، يحمل كلّ منها موضوع قصيدة محددة، تختلف باختلاف الغرض، فعلى سبيل المثال، نجد تحت عنوان "من وحي الشرق":

- رسالة الشرق في الدنيا المقدّسة.
- قُلْ يا جمال.

- فلا عزّ... حتى تستقلّ الجزائر.
- هنيئًا بني أمي.
- معجزة الصانع، الشاعر ولبنان.
- فلسطين على الصليب. (مفدي، 2006، صفحة 361)

وختم الشاعر ديوانه برسالة وجّهها في أوائل أكتوبر 1961م إلى صديقه الأديب التونسي الحبيب شيبوب.

فلا مناص إذن من القول إنّ ديوان "اللّهب المقدّس" بهذه الخصائص الواقعية، وبهذا الاعتراف الذي اِستهلّه به صاحبه لجدير بدراسة سيميائية، تقف على حقول دلالية التي حققتها رموزه الشعرية المتعدّدة، وما تحمله من أبعاد إنسانية سامية، ومن لمسات فنية مؤثرة.

2- صورة فلسطين في ديوان "اللّهب المقدّس":

تشكّل فلسطين موضوعًا قائمًا بذاته، لِما تنطوي عليه من أبعاد دينية وتاريخية وحضارية، ولِما يُضفيه عليها حضورها الروحي من قداسة ومهابةٍ، فلم تغب صورة القدس عن مخيال الشعراء الجزائريين، حيث دبّجوا فيها أجمل الأشعار، معلنين مساندتهم للقضية الفلسطينية منذ ظهورها، مستغلين كلّ مناسبة لنصرتها، إذ اتجّهت أفئدتهم إليها، فجاء إنتاجهم غزيرًا وفيرًا، إذ رسموا فيه لوحة نابضة لواقع القدس تتلألأ فيها أنوار القداسة والطهارة حينا، وتغشاها دياجر الحزن والأسى تحت وطأة الاحتلال حينًا آخر، فتبدو معلّقةً بين نور يُجلّي روحها، وجراح تُثقل كاهلها، وعلى امتداد هذه اللوحة تتردد نبرة شجن خافتة تُفصح عن عجز الوطن العربي، وتقصيره إزاء ما تُكابده فلسطين من مآسٍ وجراح لا تندمل.

ولعلّ رمزية القدس، وما تحمله من دلالات جعلها قطب الرّحى في قصائد الشعراء «فهي قضية العرب الأولى، كانت في مقدمة القضايا والمآسي العربية، التي انفعل بها شعراء الجزائر، وعبّروا عنها في شعرهم، يترجمون بذلك إحساس الشعب، وتعلّقه بها، وإيمانه بحقّ أبناء فلسطين في اِسترداد وطنهم السليب، وقد اِحتلت هذه القضية في شعرهم مكان الصدارة منذ نكبة 1948م، بل منذ وقت مبكّر جدا» (الركيبي، 1983، صفحة 54).

وعليه، فإنّه لم تحظ أيّ قضية عربية أو قومية أو إسلامية في الأدب الجزائري مثلما حظيت به القضية الفلسطينية، فهي تجسد إحدى المقدسات في وجدان الإنسان الجزائري يرقى الاهتمام بها منزلة العناية بالثوابت الدينية، إذ يعتبر التفريط فيها كأنّه تفريط في الدّين، كما قال العلاّمة الجزائري البشير الإبراهيمي: «لأنّه عربي أوّلاً، ومسلم ثانيًا، وفلسطين بحكم العروبة والإسلام ثالثا، فله بعروبته شرك في فلسطين من يوم طلعت الهوادي خيول أجداده على البلقاء، والمشارف وتصاهلت جيادهم باليرموك تحمل الموت الزؤام الأورام، وله بإسلامه عهد لفلسطين من يوم اختارهم الباري للعروج إلى السماء ذات البروج ولد إلى فلسطين نسبة من يوم قالوا عزة هاشم» (الإبراهيمي، 1997، صفحة 452).

ولهذا كان الجزائريون لا يميّزون بين القدس، ومكة المكرمة والمدينة المنوّرة، ويعتبر الاعتداء عليها اعتداءً على العروبة كلّها، لكونها قِبلة العرب الثانية، وهبة الله في الأزل السامية، بل هي حجّة الله في أرضه.

ومن المفيد التأكيد أنّ للقدس مكانة خاصّة في كتابات الشعراء الجزائريين، فقد عَضّوا عليها بالنّواجد، وكثيرة هي القصائد التي تناقلت من جيل إلى جيل، وشكّلت موضوعًا للشعر ومادة له، خاصّة في الشعر المعاصر، فهي تحتلّ مركز الثقل في القصيدة الجزائرية، وتهيمن على نسيج الخطاب الشعري، وقد عبّر فيها الشعراء عن إيمانهم بالقضية الفلسطينية وتفاؤلهم باستردادها ورجوع أبنائها إلى ديارهم.

ومن الشعراء الجزائريين الذين تأثّروا بالقضية الفلسطينية، شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، حيث آزر حرب الرشاشات بحرب الكلمة، فقد نسج في ديوانه "اللّهب المقدّس" قصائد عن فلسطين، داعيًا العرب إلى التضامن والتآزر، ورفض الاستسلام والخضوع، فعايش وتعايش مع جرح فلسطين، وتألّم لآلامها، وانتشى بآمالها، فقد أدرك مفدي زكريا أنّ النضال من أجل تحرير فلسطين هو نضال من أجل تحرير الوطن العربي بأكمله، وأنّ العدوان على القدس هو اعتداء على العروبة كلّها،

لذلك صرّح بأنّ الجزائر لم تتحرّر روحا لأنّ فلسطين جزائرية، والجزائر فلسطينية، وتحرير الجزائر روحًا إنّما يتعلّق بتحرير فلسطين، كما قال الراحل الرئيس هواري بومدين: «نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة».

وعلى هذا الأساس، فقد كان لمفدي زكريا موقف يندّد فيه من مشروع التقسيم الذي دعت إليه "لجنة بيل" كحلّ وسط، حيث شعر بحلول الكارثة، وتألّم من هذا المشروع الجاحف والمجحف، وجزع من ضياع القدس بوصفها أعزّ مكان في نفسه بل في نفوس الجزائريين والعرب والمسلمين جميعا، فنظم في ديوانه "اللّهب المقدّس" قصيدة شعرية طويلة بعنوان "فلسطين على الصليب" تتألف من تسعين بيتًا، وهي في شكل حوار بين الشاعر وفلسطين والعرب بعد ثلاثة عشر عاما من تقسيمها.

وتعدّ هذه القصيدة من أروع منجزاته الشعرية صياغةً ومضمونًا، معنى ومبنى، فقد صوّر فيها فداحة النكبة وآلام وآمال الشعب الفلسطيني، ودعاه إلى كفكفة الدموع، والنهوض لاسترجاع الحق السليب «ولعل قسوة الجرح الفلسطيني وفداحة النكبة كانا من وراء حرارة النغم الذي شدا به هذا الشاعر الموهوب المرهف الحس الأصيل الانتماء، وهو يفتتح الجزء الأول من القصيدة بنداء جياش موجع يثير كل المواجد» (حورية، 2008)، إذ يقول في ذلك:

أناديكِ، في الصّرصر العاتيهْ	❁ وبين قواصفها الداريه
وأدعوكِ،بين أزيز الوغى	❁ وبين جماجمها الجاثيه
وأذكر جرحكِ، في حربنا	❁ وفي ثورة المغرب القانيه
فلسطينُ، والعُرب في سكرة	❁ قد انحدروا بك للهاويه
رماكِ الزمان بكل لئيمٍ	❁ زنيمٍ، من الفئة الباغيه
وألقى بكِ الدهر شُذّاذه	❁ ومن لم تؤَدِّبْهُ "ألمانيه"
وصبَّ بكِ الغَرب أقذاره	❁ ورجسَ نفاياته الباقيه
وحطّ ابنُ (صهيونَ) أنذاله	❁ بأرضكِ، آمِرةً ناهيه.

(مفدي، 2006، الصفحات 336-337)

ينادي الشاعر في هذه المقطوعة فلسطين مصوّرا مأساتها ونكبتها، ساخطًا على العرب الذين أضاعوا هذا الجزء من الوطن العربي، صابّا غضبه على بني صهيون، منذرًا إيّاه بعدم الإسراف في إجرامه، وعدم الانخداع بمظاهر الكون من حوله، أو استقرار حياته بين الشعوب الضعيفة، فإنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة وعمّا قليل ستهبّ هذه الشعوب من سباتها، ويومئذ سيعرف قوة بكاء الضعفاء، وصرخاتهم التي كان يهزأ بها، وعليه أن يتحمل أوزار فعله، وآثام صنيعه "فكما تُدين تُدان"، و"إنّ غدا لناظره قريب"، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[الشعراء:227].

ويقول في موضع آخر، مشيرًا فيه إلى الصدقات التي تعطى للصليبيين من الدول الاستعمارية بغية مساعدتهم للعيش في فلسطين:

وبالمال تُغْدِقُه الصَدَقَاتُ	❁ مَضَتْ فِيكِ بائعةً شاريهْ
ودَسَّ (ابن خربونَ) أوْسَاخَهُ	❁ فعجّلَ- من نتنها- الغاشيهْ.

(مفدي، 2006، الصفحات 336-337)

وما فتئ مفدي زكريا، شاعر الثورة الجزائرية الغيور على بني الإسلام والعروبة يستنفر الضمير العربي مذكرًا بحرمات الأرض الفلسطينية مسرى الرسول ﷺ، وما آلت إليه، حيث ذلّ العزيز، وعزّ الذليل، أصبحت فلسطين تبكي وما يبكيها إلاّ الذين يتّخذون حائطًا يبكون عليه، إذ يقول في ذلك:

بَكَيْتِ فلسطينُ في حَائِطٍ	❁ به- قبلُ- قد كانتِ الباكِيه
فيَالكَ من معْبَد نجسُّوا	❁ حناياه بالسوْءَة البَادِيه
ويَالكِ من قِبْلَة كدَّسُوا	❁ بمحرابها الجيَف البَالِيه...!

https://philolinginvestigations.com

ويالكَ من حَرم آمِنٍ ❁ جياعُ ابن آوى به عَاوِيه.

(مفدي، 2006، صفحة 338)

أمّا الجزء الثاني من القصيدة، فقد صاغه مفدي زكريا على لسان فلسطين، وهو ينزف ألمًا وحسْرةً، ولكنّه يسمو شموخًا، مصوّرًا ومصرّحًا عن أسباب النكبة، فاضحًا تخاذل العرب، مبرزًا أنّ العربي الذي يبكي فلسطين هو نفسه الغاصب السّالب النّاهب، على يده راحت تُباع فلسطين وتُشترى كما تُباع الماشية للجزّار، وتشنق في حبل المستعمر، الذي يسلبها مكانتها وعزّتها وكرامتها، حيث يقول:

أيا شاعر العُرب ذكّرتني ❁ وهِجتَ جراحاتي الدامية

لقد كان لي سبب للبقا ❁ فقطّع قومي أسبابيه

ورُحتُ أُبَاع وأشْتَرَى، كما ❁ تباع لجزارها الماشيه

وأُشنَقُ في حبل مستعمِري ❁ وأصْلَب في كفِّ جلاّدِيَه

ويسلبني عزتي، غاصبي ❁ وتنهبُ داريَ، قطاعيَه

وفرّقني (الخُلْفُ) أيدي سَبَا ❁ وشتت في الأرض أوصاليَه

فأصبحتُ أَرسُف في محنتي ❁ وقومي عن محنتي لاهيه

وفي سكْرَة ضيَّعُوا عِزَّتِي ❁ ولمْ يُغنِ عنّي سُلطانيَه.

(مفدي، 2006، صفحة 341)

إنّ فلسطين المكلومة تئنُّ وتُعاني في صمت، فلم تستطع أخذ الحرية بيدها، ولم تحقّق مبتغاها، ولا العرب مدّوا لها يد المساعدة، بل زوّدوها فقط بالصلوات ونظم الشعر ونثر الخطب، وبعقد المؤتمرات التي أضحت سوى مؤامرات، وإنّ إسترجاع الحقوق المسلوبة، وتحرير القدس لا يكون إلاّ بإشعال فتيل النار، وبالاعتماد على لغة الحديد لا لغة الحديث،وهي دعوة تنبع من تجربة الثورة الجزائرية التي يستحضرها الشاعر بوصفها نموذجًا لتحويل الإرادة إلى واقع، قائلا:

فلا أنا حققتها بيدي ❁ ولا سلَّح العُرب أبنائيه..!

وزوّدني العُرب بالصّلوات ❁ وبالشعر.. والخطب الناريه

وماذا عساه يفيد الكلام ❁ وما سوف تصنعه القافيه؟

فلا الدمع يدفع خطبي الرهيب ❁ ولا دعوات، ورهبانيه

وماذا عساها تصنع الصلاة ❁ إذا أسْكت العُرب رشاشيه؟!

فلو كان لي، أمر تدبيرها ❁ لما احترت في أمرها ثانيه

وكنتُ الجزائرَ في زحفها ❁ وحققت- بالشعب- آمالِيَه

وأهويتُ بالفأس: أذرو الجذوع ❁ وأسحق بالنَّعل ثُعبانيه

وألهبتُها فوق أرض الحمى ❁ وحرَّرتُ بالشعب أوطانيه.

(مفدي، 2006، صفحة 342)

ويعود الشاعر إلى تجربته الجزائرية ليجعل منها مصدر أمل مفتخراً كونه ابن الجزائر التي على دمها ترفع راية النصر، وبدماء الشهداء الزكية تحققت الحرية التي طالما ظلّت حبيسة الظنون، فغدا بثورتها شاعرا وأبدع من نارها ونورها حروفا سعيًا للجهاد وتحرير القدس، وهذا ما نلمحه في قوله:

أنا ابنُ الجزائر... من أُمَّة ❁ على دمها، تصعد الرّابيهْ

على ذَوْبِ أكبادها، ترتقي ❁ وفوق جماجمها، ماضيَهْ

غدوتُ، لثورتها، شاعرا ❁ من النار والنور، ألحانيَهْ.

https://philolinginvestigations.com

(مفدي، 2006، صفحة 348)

ويستفزّ الشاعر النخوة العربية بذكر الأمجاد التاريخية التي خلّدها أبطال العرب أمثال: خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص وصلاح الدين الأيوبي في القادسية وحطين وأنطاكية، وهذه الإحالات لا تؤدي وظيفة الزينة التاريخية،وإنّما تستعيد نموذجًا للمقاومة وتضع الحاضر أمام ذاكرة قادرة على أنتاج الحماسة، إذ يقول:

وخلّدتُ (حِطِينَ) في مقدسي ❁ وجدَّدْتُ غزوة "أنطاكية"
وناديت- إن خذلوا ثورتي- ❁ من (القادسيةِ)أنصاريه
وجنّدتُ من (خالد بن الوليد) ❁ و(سعد بنِ وقاص)أبطاليه.

(مفدي، 2006، صفحة 344)

وفي موضع آخر، يتخذ الخطاب نبرة التأسّف والاعتذار لفلسطين على إهماله القدس، ملتزمًا بإصلاح أخطائه، طالبًا الصفح عن زلاته، مكفّرًا عن ذنوبه، بالدفاع عن مسرى الرسول ﷺ، حيث يقول:

فلسطين...لا تيأسي، إنّني ❁ سأصلحُ في الشرق- أخطائيه
لئن خنتُ- فيما مضى- إنّه ❁ يوبخّني- اليومَ- وَجْدانيه
تخاذلتُ، وانهار منّي الضميرْ ❁ فضيّع أرضيَ خُذلانيه
وأهملتُ قدسيَ، نهْبَ الذئاب ❁ فألبسني الخزيَ إهماليَه
وأعرضتُ، عن صارخٍ من ندالْ ❁ وطاوعتُ- في الكيد- شيطانيه
ولطّختُ، عرضيَ، بين الورى ❁ وسايرتُ- للإثم- أهوائيَه
فإنْ تصفحي- اليوم- عن زلّتي ❁ تكفِّرْ عن الذنب، أفعاليه.

(مفدي، 2006، الصفحات 345-346)

كما دعا الشاعر العرب للاحتجاج بغية رفع الظلم، وكلّ أشكال الضيم والمعاناة عن الفلسطينيين، معتبراً أنّ مساندتهم أمر ضروري، بل هو واجب مقدّس، مختتمًا قصيدته بالأمل، بل بالثقة في النصر، إذ يقول:

فإنّ العروبةَ ترْبَأُ بي ❁ وينهانِيَ- اليومَ- قرآنيَه
مصيركِ، آخُذه بيدي ❁ وأدعو- إلى الثأر- إخوانيه
فلسطين ... في صُلبنا، لُحمةٌ ❁ جراحاتها، في الحشى، ثاويه
عروبتنا، في ضمير البقا ❁ وشائجُ، راسخةٌ، راسيه
(محمد) أبقى لنا،عبرة ❁ من الذئبِ، والغنم القاصيه
وفي نكبة العرب، موعظةٌ ❁ - مدى الدهر- للمُهج الواعيه
فَمُدّوا يداً، نَحْمِ أوطاننا ❁ وننقذْ حمانا، من الهاويه
فإن تنصروا الله ينصركم ❁ ويُنجزْ، أمانيكُمُ الغاليه
ولن يخلفَ الله، ميعادَه ❁ ولا رَيْبَ... سَاعَتُنَا، آتيه.

(مفدي، 2006، الصفحات 347-349)

هكذا تفاءل الشاعر بنصر فلسطين، آملاً أنّ ساعة الخلاص آتية لا ريب في ذلك شريطة أن يعتصم العربُ جميعًا بحبل الله ولا يتفرّقوا، داعيًا الفلسطينيين في أن يتخذوا ثورة الجزائر مثالاً يُحتذى به، فهو لا يرى القضية الفلسطينية نضالاً ومصيرًا، بل وجوداً واستمراراً، مستشرفاً أنّ ثورة فلسطين ستُبعث من أرض الجزائر، التي تمثل نقطة الانطلاق، ومنها سينطلق الجيش لتحرير القدس وتطهيرها من الاحتلال الصهيوني واسترجاع الحقّ السّليب، وفي ذلك يقول:

فلسطين... في أرضنا، بعثُها ❁ ومن أرضنا تزحف الحاميه

https://philolinginvestigations.com

ومن أرضنا... نقطة الانطلاق ❁ وثورتنا... حَجرُ الزاويه.

(مفدي، 2006، الصفحات 348-349)

تـِلكم هي صورة فلسطين، في وجدان شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، وفي مخيلته، ووعيه، فقد عاش أحداثها الأليمة، فتوجّع بأوجاعها، وانتشى بآمالها، إذ لم تكن القدس موقعًا جغرافيًا جرت عليه أحداث سجلها التاريخ فحسب، ولم تكن موطنًا يتغنى به سكانه المقيمون به أو المغتربون عنه، بل لها قيمة رمزية، تحتلّ مكانة خاصّة عند العرب والمسلمين بعامّة، والجزائريين بخاصّة، وهذا ما تجسّد في قصيدة "فلسطين على الصليب"، ومن ثَمَّ لا تقف هذه الرّمزية عند حدود التعبير الوجداني، بل تتّسع لتؤدي وظيفة فكرية، و وحدوية تستنهض الوعي الجماعي، وتؤسّس لمعنى الانتماء.

وصفوة القول، إنّ الجزائر وفلسطين كليهما قد عانتا ويْلات الاستعمار، فكابدتا الآلام، وتجرعتا الظلم والتعذيب والاضطهاد، وهذا ما جعل القضية الفلسطينية تُلامس قلوب الجزائريين، لأنّهم ذاقوا طعم الأسى نفسه واِكتووا بمرارة المعاناة ذاتها، غير أنّ الجزائر اِستطاعت أن تفكّ عنها أغلال الاستعمار وتحرّرت، بينما فلسطين لا تزال مكبّلة محاصرة في شباك المستعمر الغاشم.

3- رمزية القدس ودلالاتها في الديوان:

لاشك في أنّ الرّمز الشعري في ديوان "اللّهب المقدّس" لمفدي زكريا يشكّل لغة إيحائية مُفْعمة بالدلالة الإنسانية، فهو يجمع بين إحساس مُرهف، وتصوير فنّي مُبدع، وتأثير جمالي أخّاذ.

وعليه، فإنّ مفدي زكريا يحاول اِستثمار طاقة الرّمز الدّلالية من خلال استحضار الرّموز الطبيعية والشخصيات التاريخية في مواقف تتصل بالأبعاد الحضارية والقيم الإنسانية، وبذلك ينقل القارئ من المستوى المباشر للقصيدة إلى المعاني والدلالات التي تُخفيها الكلمات، كما يقوم بِاستكمال ما تعجز المفردات عن توضيحه، وفي هذا السياق يقول أدونيس: «الرّمز هو ما يُتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النّص، فالرّمز هو قبل كلّ شيء معنى خفيّ وإيحاء، إنّه اللّغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هو القصيدة التي تتكوّن في وعيك بعد قراءة القصيدة» (الوالي، 1990، صفحة 192).

وعلى ضوء ما تقدّم، يتراءى لنا أنّ مفدي زكريا قد وظّف الرّمز في قصيدته "فلسطين على الصليب" الّتي دبّجها في الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين، محمّلاً بمضامين جديدة يُكشف عنها بالوصول إلى معرفة الأبعاد التعبيرية داخل الحقل الأدبي المُخصص بدراسته.

فالرّمز الشعري في ديوان "اللّهب المقدّس" يخفي معانٍ متعدّدة، كما أنّه يفصح عن مُثل إنسانية، وهذا من خلال إقامة علاقات جديدة بين الدوال والمدلولات، وفي هذا السياق يرى "كارل يونغ" «أنّ الرّمز أحسن طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له معادل فكري آخر، من الحقّ أنّ مضمونه المنطقي أو العقلي يستطاع إدراكه وفهمه، لكن مضمونه اللامنطقي، لا يمكن تفسيره تماماً وإنّما يلتقطه الحدس» (يونغ، د.ت، صفحة 16).

والمتأمّل في ديوان "اللّهب المقدّس" يُلاحظ أنّ للقدس رمزية خاصّة، لِما لها من مكانة دينية وحضارية وتاريخية، ولِما تحمله من دلالات وأبعاد جعلتها نقطة الإرتكاز في قصيدته "فلسطين على الصليب"، وإذا ما تمّعنا في العنوان نجده مركباً من بنية رمزية ذات أبعاد دلالية متداخلة، فلفظة "الصليب" تجمع بين الرّمز الديني والتاريخي والسياسي، ما يدلّ على إبداع مفدي زكريا في تصويره لمأساة فلسطين عموما ولواقع القدس خصوصا، موظفاً لغة رمزية مكثفة تتجاوز الخطاب المباشر بِما يمنح النّص حمولات دلالية عميقة، ويحوّله من حدث سياسي إلى تجربة إنسانية كونية، ويُعزّز التأثير الوجداني في المتّلقي.

وعلى هذا الأساس، يتسنّى القول إنّ توظيف الرّمز في "فلسطين على الصليب" اِرتبط بذكرى تقسيم فلسطين، لكنّه لم يبق أسير تلك المناسبة، فقد أعاد مفدي زكريا صياغة الحدث في صور شعرية تستدعي الماضي والحاضر معًا، وتحوّل القدس إلى علامة تختزن ذاكرة الجرح وشرعية المقاومة، فهي مقدسة من منظور ديني وثابتة من منظور تاريخي وحضاري، ومكلومة من

منظور سياسي، ومن تداخل هذه المستويات لا يصبح المكان مجرد خلفية للأحداث، بل يغدو طرفا فاعلاً في إنتاج دلالة النص وشرعيته.

1-3. الرّمز الديني:

تعدّ قصيدة 'فلسطين على الصليب' من أبرز النصوص الشعرية التي تشّع بالرّمز الديني، وقد اِتّكأ عليه الشاعر للتّعبير عن مأساة فلسطين، مستثمراً في ذلك الرّموز المسيحية والإسلامية، حيث اِستدعى رمز "الصليب" ليُحيل مباشرةً إلى قصة صلب المسيح- عليه السلام- وللدلالة على طهارة وقداسة فلسطين بمثل قداسة المسيح، وإسقاط تجربة الصُلب على الواقع الفلسطيني، آملاً في الخلاص من الضيم، والانتصار بعد المعاناة.

فتوظيفه لرّمز "الصليب" ليس رمزاً دينياً فقط، بل رمزاً كونياً يُومئ بالألم الإنساني، إذ تُقدّم فلسطين كقربان من أجل قضية عادلة، تُصلب وتُنّكل كما صُلِب المسيح وهو بريء. وعليه، فإنّ لفظ "المسيح" يُوحي بالألم النبيل والظلم التاريخي، والتضحية، والفداء والبراءة.

هكذا يتبيّن أنّ الشاعر قد حوّل فلسطين إلى رمز مسيحي مصلوب، إذ جعل من الصليب لغة شعرية للاِحتجاج محاولاً الإرتقاء بالقضية الفلسطينية إلى مأساة إنسانية، فالرّمز عنده ليس تزيينيًا، بل عمد فيه إلى تحقيق وظائف أساسية تتمثل في الوظيفة التّعبيرية، حيث نقل جرح فلسطين بصورة مؤثّرة، كما سعى من خلال هذا الرّمز إلى اِستمالة القارئ عبر رمز مقدّس، ومعروف عالمياً (المسيح الصليب)، محققًا وظيفة رمزية حضارية ربط فيها القضية الفلسطينية بالتراث الديني المشترك، و وظيفة نضالية تكمن في تحويل الألم إلى خطاب مقاومة وأمل بالانتصار.

والقمين بالتسجيل أنّ مفدي زكريا قد استحضر في ديوانه "اللّهب المقدّس" مدينة القدس وفق رؤى دينية بِما تحمله من رموز ودلالات تمثل إحدى المقدّسات، وهي عظيمة في شأنها، مقدسة في مكانتها، عريقة في تاريخها، لم تنلْ أيّ مدينة من التشريف والتعظيم مثلها، ولا عجب في ذلك، فقد اِرتبطت قدسيتها بالموروث الثقافي الإسلامي من قرآن كريم، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:01]، وحديث شريف لقولهﷺ: {لا تشدّ الرّحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى} (رواه الإمام أحمد).

إنّ هذه القداسة التي أضافها الإسلام إلى الحرم القدسي الشريف، إنّما جاءت لتشيع قداسة القدس بين كلّ أصحاب الديانات والمقدسات، فتجمع بينهم بدلا من الاحتكار والنفي والإقصاء الذي صنعه ويصنعه الآخرون (عمارة، د.ت، صفحة 19).

وتجمع هذه المدينة الخالدة إضافة إلى القدسية والجمال، صفة البركة، فقد باركتها السماء مثلما باركت فلسطين كلّها؛ فهي أرض مباركة، أرض الإسراء والمعراج، والمحشر والمنشر، وقد أخذت مكانتها إسلاميًا من وجود المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين، فالقدس أرض النبوّات، وتاريخها مرتبط بمسرى الرُسل الكرام عليهم أزكى الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول مفدي زكريا:

فلسطين... يا مَهْبَطَ الأنبيا ❁ ويا قبلة العرب الثانية

ويَا حُجَةَ الله فِي أرضِهِ ❁ ويَا هِبَةَ الأَزَلِ السَامِيَة.

(مفدي، 2006، الصفحات 336-337)

فقد رمز مفدي زكريا للقدس بأنّها مهبط الأنبياء، وحجة الله في أرضه، وهي قِبْلة العرب الثانية، وهِبة الأزل السامية.

وما نروم توضيحه، أنّ مفدي زكريا تفاعل مع المعنى الديني، موظّفًا الشخصيات الإسلامية، فنراه في هذه القصيدة يذكر أنبياء ورسلاً، ويستحضرها اِستحضاراً مباشراً من دون أن يخوض في الكشف عن ملامح تلك الشخصيات، ومردّ ذلك أنها معروفة مألوفة عند العام والخاص، أو لَرُبّما قد فعل ذلك لترك المجال مفتوحًا للقارئ بغية تأويلها حسب الغرض من توظيفها،

ومن تلك الشخصيات ذكره للنبي موسى- عليه الصلاة والسلام- والرسول ﷺ، فهاتان الشخصيتان قد أخذتا قسطاً وافراً من التوظيف، لأنّهما يجسّدان قضية الصراع ضدّ القيم، وإقرار معنى الإنسانية، وهذا ما نستشفه في قوله:

فَأقتَصّ من قوْم موسَى غدًا ❁ وآخذهم أخْذةً رَابِيَهْ

(إذَا جَاءَ مُوسَى، وألْقَى العَصَا) ❁ تلقَّفُ مَا يَأفِكُ الطَاغِيَه.

(مفدي، 2006، صفحة 344)

فقوم "موسى" ترمز إلى بني إسرائيل، وإنّ اِقتباس الاِسم "موسى" يُوحي بدلالة دينية اِستطاع الشاعر توظيفها في النّص وربطها بالأماكن، لكي يجعل منها مكانة رفيعة وعظيمة، وأنّها متصلة بالديانات.

وفي قوله:

(محمدُ) أبقى لنا، عبرة ❁ (من الذئبِ، والغنم القاصيه).

(مفدي، 2006، صفحة 349)

إنّ دلالة "محمد" ﷺ في النّص تُوحي بطاقة متحرّكة، فهي تحوّلها من سكونها المكوّن من أحرف لغوية إلى طاقة وحركة مفجّرة للعالم المحسوس، وكذلك تكسب المكان في البيت المقدّس حياة ونموًا، وقد اِرتبط رمز "محمد" عليه الصلاة والسلام بكسر شوكة الظلام وإحلال النور، وإنّ قدوم النبيّ المصطفى من مكة المكرّمة إلى مدينة القدس واِجتماع الأنبياء خلفه جعل المدينة تشعّ ضياءً بإعلاء كلمة الحق والتوحيد، فتجتمع بذلك الديانات اليهودية والنصرانية والإسلام مُعلنة وحدة الدين وختام النبوات السماوية المباركة برسالة المصطفى.

وبناءً على ذلك، يتضّح أنّ الرمز كخيار جمالي، وكتقنية فنيّة لا يقحمه الشاعر مباشرة في القصيدة بشكل اِعتباطي، ولكن يُدمجه بطريقة مدروسة، فقد تسلّح مفدي زكريا بثقافته الإسلامية، واِعتمد عليها كثيرا في رسم صوره الشعرية المجسّدة للقدس وما تحمله من دلالات، إذ جعل القرآن الكريم المصدر الأوّل لنهل مفرداته وتوظيفها في شعره بعامة، وفي اللّهب المقدّس بخاصّة، حيث تكاد هذه الأخيرة لا تخلو من الحاضر القرآني، في قوله:

..... ❁ لا ريب، ساعتنا آتية

إذَا جَاءَ مُوسَى، وألْقَى العَصَا ❁ .....

فإن تنصروا الله، ينصركم ❁ .....

..... ❁ يا ليتها كانت القاضية

..... ❁ قواعد، طاعمة، كاسية

..... ❁ الصرصر العاتية

وهكذا يتراءى أنّ التفاعل القرآني اِتخذ أشكالاً مختلفة من اِجترار الآيات بلفظها أو بمعناها أو تحويرها وفق حاضر النّص الجديد، أو تمثل الفاصلة القرآنية أو الصور الفنيّة، إذ نجده كثيرا يبنى صوره الشعرية اِعتماداً على لفظة أو جملة أو معاني قرآنية، حرصًا على تجسيد الأحداث بأسلوب جزلٍ متين.

2-3. الرّمز التاريخي:

لم يقتصر مفدي زكريا بإستحضار حادثة "الصلب" على البُعد الديني، بل تجاوزه إلى البُعد التاريخي، حتى يمنح القضية الفلسطينية عُمقاً زمنياً، تتداخل فيه أزمنة الماضي والحاضر عبر رموز تاريخية تُكثف المعنى، وتُطفي على النّص أفقاً حضارياً يعكس استمرارية الصراع بين الحق والباطل.

فقد اِستدعى الشاعر حدث "الصلب" كرّمز تاريخي مشبعًا معاناة فلسطين بمأساة تاريخية كبرى صلب المسيح، فتعمّد في دمج زمنين- الماضي والحاضر- لاستحضار أحداث تاريخية (الصلب) وإسقاطها على واقع معاصر (الاحتلال الصهيوني)، مؤكّداً أنّ التاريخ يُعيد نفسه، مُشيراً أنّ الظلم ليس حدثاً طارئاً وإنّما هو ممتد، مستشرفا تحرّر فلسطين.

وعلاوةً على ذلك، فقد وظّف مفدي زكريا في ديوانه "اللّهب المقدّس" رموزاً ذات دلالات تاريخية تتمثل في البطولات والأماكن التاريخية وأبطال الفاتحين الذين مجّدوا نصر الأمة ورفعوا من شأنها، وأعادوا لها كرامتها وفخرها، حيث اِقتبس الشاعر من التاريخ العربي والإسلامي بعض الأسماء التي أسهمت في تغيير حركة التاريخ، وأثّرت كذلك في بناء القيم الإنسانية والحضارية، أمثال: خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص..، وهذا ما يتّضح في قوله:

وجنّدَتُ من (خالد بن الوليدَ) ❁ و(سعد بن وقاصَ) أبطاليه.

(مفدي، 2006، صفحة 343)

كما اِستعان بذكر أسماء بعض الأنبياء والرُسل نذكر منها رسول البشرية محمد ﷺ، وموسى- عليه الصلاة والسلام-، فهو يستند إليهما في التعبير عن تجربته الشعرية الثائرة في ديوانه، إذ يقول:

إِذَا جَاءَ مُوسَى، وأَلْقَى العَصَا ❁ تلْقَّفُ مَا يَأْفِكُ الطَغِيَهْ

(محمد) أبقى لنا، عبرة ❁ من الذئبِ، والغنم القاصيه.

(مفدي، 2006، الصفحات 344-349)

كما ذكر الأماكن التاريخية وما تحملها من أبعاد ورموز كالإشارة إلى غزوة أنطاكية والقادسية، فتتحوّل هذه الأماكن إلى خرائط رمزية للانتصار، ونلمس هذا في قوله:

وخلّدتُ (حِطِينَ) في مقدسي ❁ وجدَّدْتُ غزوة "أنطاكية"

ونـاديت- إن خذلوا ثورتي- ❁ من (القادسيةِ)أنصاريه.

(مفدي، 2006، صفحة 344)

ونُنَوّه أخيراً أنّ السمة البارزة في ديوان "اللّهب المقدّس" كثرة اِستعمال الرّموز التاريخية، حيث يوظّفها ليُحقق اِرتباط اللاّحق برموز النّص السابق، وقد احتلت مكانة واضحة في ضمير الشاعر والمتلقي معًا، واِرتبطت بأبعاد فكرية واِجتماعية وسياسية.

3-3. الرّمز السياسي:

جسّد مفدي زكريا في ديوانه "اللّهب المقدّس" صور الكفاح والجهاد للتحرّر من العدو الصهيوني، وتجلى هذا البعد في قصيدته "فلسطين على الصليب"، فهو ينظر إلى الغد نظرة تفاؤل وأمل تُنبئه بنبأ يمزق ظلام الليل ويجلو الضباب، فتشرق شمس الحرية، وتُنير الآفاق، فهو يرى أنّ الجهاد في سبيل عزّة الإسلام والمسلمين هو تحرير هذه الأرض المباركة.

لقد سخّر الشاعر قلمه الذي كان سوطًا على الاستعمار الصهيوني لخدمة القضية الفلسطينية، فاِرتكز على الرّمز بدلالة المباشرة والتصريح، حيث وظّف ألفاظًا وعبارات ذات حقل سياسي تشير إلى المقاومة والجهاد والتعذيب والاضطهاد، ومن هذه الألفاظ: الحرب، الوغى، جراحاتي، دامية، الجلاّد، الرشاش، القتال، غزوة، جنّدت، الحاكمين، الحكام، ثورتي، نيران.. ونلمس ذلك في قوله:

ومن أرضنا... نقطة الإنطلاق ❁ وثورتنا... حَجرُ الزاويه

أيا شاعر العُرب ذكّرتني ❁ وهِجت جراحاتي الدامية

وأذكر جُرحك في حربنا ❁ وفي ثورة المغرب القانيه

وأدعوكِ بين أزيز الوغى ❁ وبين جماجمها الجاثيه

وماذا عساها تردّ الصلاة ❁ إذا أسكت العُرب رشاشيه

وأغضب، غضْبة ليْثِ القتال ❁ وأذكر(بِنْزَرْتَ) و(الساقيه)

https://philolinginvestigations.com

يتّضح أنّ مفدي زكريا قد وظّف الرّمز السياسي لتجسيد صوت فلسطين وتحريرها من العدو الغاشم، فلفظة (بِنْزَرْتَ) مثلا تدل على أكبر ميناء ببلاد العرب في تونس، تحتلّ فيه فرنسا قواعد حربية، أمّا لفظة (الساقيه) فهي تشير إلى ساقية سيدي يوسف في الحدود التونسية الجزائرية، وقد إعتمدت عليها الطائرات الفرنسية في شهر فيفري (شباط) 1954م.

وعمومًا، فإنّ مفدي زكريا قد تفنّن في توظيف الرّمز السياسي ليجعل من فلسطين قضية رمزية كبرى، والصليب صورةً للاحتلال والقهر، والشعب نموذجًا للمقاومة والصمود، وبذلك تحوّلت القصيدة 'فلسطين على الصليب' إلى خطاب شعري نضالي مشحوناً ببنية رمزية وأبعاد دلالية.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول، إنّ الشاعر إستطاع عن طريق الرّمز أن يصوّر فلسطين وهي تعيش حياة الذلّ والهوان، وتُعاني الإنكسار والتخاذل العربي، إذ نجح في المزج بين المأساة السياسية والبُعد الديني والتاريخي للصراع الصهيوني العربي عبر العصور، محاولاً إيقاظ النفوس، وشحذ الهِمم لفك الحصار، وتحرير القدس، وإسترجاع حقّها السّليب.

خاتمة:

ختامًا، وحتى نسدل الستار على هذا البحث- ولو إلى حين- هَا هي أهمّ النتائج المتوصّل إليها:

- للقدس رمزية خاصة في ديون "اللّهب المقدّس"، لِما تحمله من دلالات وأبعاد جعلتها قطب الرّحى في قصيدته "فلسطين على الصليب".
- لقد أبدع مفدي زكريا عن طريق الرّمز تصوير واقع القدس وإبراز الحزن والأسى من جهة، وعجز الوطن العربي عن نصرة فلسطين وتحريرها من قبضة الاحتلال الصهيوني من جهة أخرى.
- اعتمد الشاعر في قصيدته 'فلسطين على الصليب' على بنية رمزية مركبة، تقوم على تداخل الرّمز الديني والسياسي والتاريخي.
- برع الشاعر في إستثمار الرّمز لتكثيف الدّلالة وتعميق المعنى، بِما أتاح للنّص أن ينفتح على آفاق إنسانية تجاوزت الحدود الجغرافية لتلامس قضايا الإنسان في كلّ زمان ومكان، وبذلك يتراءى أنّ رمزية القدس في ديوانه ليست مجرد توظيف فنّي، بل هي تعبير عن وعي حضاري، والتزام إنساني، جعل من الشعر وسيلة للانتفاضة، ومن الرّمز لغةً تقول ما يعجز عنه الخطاب المباشر.
- أسهم الرّمز الديني في إضفاء طابع القداسة والطهر على القضية الفلسطينية من خلال إستحضار البُعد الروحي، والتناص مع الموروث الديني.
- عكس الرّمز التاريخي استمرارية الصراع بين الحق والباطل بربط الماضي بالحاضر في سياق دلالي موحّد.
- حمل الرّمز السياسي دلالات واضحة تُوحي بالاحتلال والاستبداد، وتكشف معاناة الشعب الفلسطيني، كما يومئ هذا الرّمز بالتحدّي والمقاومة.
- تداخلت الأبعاد الثلاثة داخل النص، حيث تعانق البُعد الديني مع السياسي وتقاطع التاريخي مع الراهن، وإجتمعت جميعها مشّكلةً صورة رمزية واحدة، تغدو فيها القدس رمزاً إنسانياً يجسّد الألم والأمل معاً.
- لقد شكّلت القضية الفلسطينية مرتكزاً في فكر وشعر مفدي زكريا، فهو لم يكن يرى هذه القضية نضالاً ومصيراً، بل وجوداً وإستمراراً، متطلّعًا لإستشراف المستقبل، وإسترداد الأمل المسلوب، وإسترجاع الحقّ السّليب.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. أنيسة بركات. (2013). *أدب النضال في الجزائر سنة 1945 حتى الاستقلال*. الجزائر: موفم للنشر.
2. حسين فتح الباب. (1997). *مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية* (ط1). القاهرة: دار المصرية اللبنانية.

3. حورية. (2008/10/04). الجزائر: منشورات فلسطين على الصليب لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا. *صحيفة دنيا الوطن*: http://sulpit.alwatanvoice.com/content/print.
4. رواه الإمام أحمد. *شرح النووي لمسلم*. حديث رقم: 1397.
5. عبد الله الركيبي. (1983). *وصايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
6. كارل يونغ. (د.ت). *الإنسان ورموزه سيكولوجية العقل الباطن* (د.ط). (عبد الكريم ناصف، المحرر) التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
7. محمد البشير الإبراهيمي. (1997). *عيون البصائر* (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
8. مفدي زكريا. (2006). *(ابن تومرت) شاعر الثورة الجزائرية، اللّهب المقدس* (ط4). الجزائر: وحدة الرغاية.
9. مفدي زكريا. (1987). *إلياذة الجزائر*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
10. محمد الوالي. (1990). *الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي* (ط1). بيروت: المركز الثقافي العربي.
11. محمد عمارة. (د.ت). *القدس في الديانات السماوية*. القاهرة: دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة.
12. محمد قنانيش. (1982). *الحركة الاستقلالية في الجزائر*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
13. محمد ناصر. (1985). *الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية* (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.